﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: 4 - 8]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تقريبُ هَولِ القيامة بأمثلةٍ مِنَ عذابِ المُكذِّبين

لمّا عَظُم التَّهويل بذِكْرِ الحاقَّة واستفهامِها المعَظَّم؛ أُرْدِفَ ذلك بذِكْرِ مشاهِدَ مِن أحوالها وشواهدَ مِن آثارها، ممّا شاهدَهُ النّاس، أو بلَغَهُم مِن عذاب الأمم المكذِّبة، فبدأ بثَمودَ وعادٍ؛ ليُقرِّب صورةَ الحاقَّة بما وقع مِن قوارِعِها في الدُّنيا على مَن كذَّب بها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾: أصل (قرع) يدلُّ على ضَرْبِ الشَّيء[2]، يُقالُ: قَرَعْتُ الشَّيءَ أقرَعُه: ضربتُه، والمُقارَعةُ: مُضاربةُ القوم في الحَرْب، وكلُّ شيءٍ ضَرَبْتَه بشيءٍ، فقد قَرَعْتَه، وقَرَعَهُ بالحقِّ: رَماه به، قَرْعًا، والمِقْرَعَة: حَديدةٌ مُطَوَّلَةٌ يُقْرَعُ بها الباب[3]، والقارِعة: الشَّديدة من شدائد الدَّهر، وسمّيتْ بذلك لأنَّها تَقْرَع النّاس، أي: تضرِبُهم بشدَّتها، وقَوارِعُ القرآن: الآياتُ التي مَنْ قَرأها لم يُصِبْه فزَع، وكأنَّها سمّيت بذلك لأنَّها تَقْرَع الجنَّ[4]، والقارِعةُ في الآية مُرادٌ بها الحادثةُ العظيمةُ، وهي يومُ القيامة، وسمّيَ بذلك لأنَّه يقرع القلوب، ويزجُرُها لشِدَّة أهوالِه[5].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 882.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرع).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قرع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 510، وطنطاوي، التفسير الوسيط: (قرع).

2) ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: أصلُ (طغي) يدلُّ على تجاوُزِ الحَدِّ، يُقالُ: هو طاغٍ[1]، وطَغى البحرُ: هاجَتْ أمواجُه، وطَغَى الدَّمُ: تَبَيَّغَ، وطَغَى السَّيْلُ؛ إذا جاءَ بماءٍ كثيرٍ، وكلُّ شيء يجاوز القَدْرَ؛ فقد طَغَى، مثلَما طَغَى الماءُ على قَوْمِ نوحٍ، وكَما طغتِ الصَّيحةُ على ثَمودَ[2]، وتقولُ: سمعتُ طَغْيَ فلانٍ، أي: صَوْتَه، وسمعتُ طَغْيَ القومِ وطَهْيَهم ووَغْيَهم، أي: صَوْتَهم، وطَغَتِ البقرةُ تَطْغَى: صاحَتْ[3]، والمراد بالطّاغية هنا: الصّاعقة أو الصَّيحة الَّتي أهلكت قوم ثمود[4].

3) ﴿صَرْصَرٍ﴾: أصل (صرر) يدلُّ على بردٍ وصوت، ومنه: الصِّرُّ: البَرْد، والصَّرَّة: شدَّة الصّياح[5]، والصَّرْصَر: الرّيحُ العاصِفَةُ التي يكونُ لها صَرْصَرَة، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها، من شِدَّةِ سُرْعَةِ تَنَقُّلِها، والتَّضْعيفُ فيه للمُبالَغَةِ في شِدَّتِها[6]، مأخوذٌ من الصِّرِّ: وهو البَرْدُ الذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ، ويَقبِض، فيجعل الأشياءَ تتقبَّض، وتتجمَّد[7]، والمراد هنا: ريحٌ شَديدةُ البَردِ والصَّوت والعُصوفِ، حَتّى كانَتْ تُجَمِّدُ البَدَنَ بِبَرْدِها، فَتَكونُ كَأنَّها تَصُرُّهُ – أيْ تَجْمَعُهُ – في مَوْضِعٍ واحِدٍ، فَتَمْنَعُهُ التَّصَرُّفَ بِقوَّتِه[8].

4) ﴿عَاتِيَةِ﴾: أصل (عتو) يدلُّ على استكبار[9]، ومنه العُتُوُّ، وهو التَّجبُّر والتَّكبُّر، يُقالُ: عَتا يَعْتو عُتوًّا وعِتيًّا: استكبرَ وجاوزَ الحَدَّ[10]، والعاتي: الشَّديدُ الدُّخول في الفساد، المُتَمَرِّدُ الَّذي لا يقبلُ موعِظة، وعَتَتِ الرّيحُ: جاوَزَتْ مقدارَ هُبوبِها، ولَيْلٌ عاتٍ: شَديدُ الظُّلْمةِ[11]، والمراد بالعاتيةِ في الآية: الرّيحُ الشَّديدة العَصْف[12].

5) ﴿سَخَّرَهَا﴾: أصلُ (سخر) يدلُّ على احتقارٍ واستِذلالٍ، ومن ذلك قولُنا: سَخَّرَ اللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغي).
(2) الخليل، العين: (طغي).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (طغي).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 70.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 259.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 9، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرص).
(8) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 163، 19/ 114.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتو).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عتا).
(11) الزبيدي، تاج العروس: (عتو).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

ﷺ الشَّيءَ، وذلك إذا ذَلَّلَهُ لأمْرِه وإرادته[1]، وسخَّر اللّٰهُ لفُلان كَذا وكَذا، أي: سهَّله لَهُ[2]، والتَّسخير في الآية معناه: سياقَةٌ إلى الغرض المُختصِّ قهرًا، أو: استعمال الشَّيء على وجه الاستعلاء والاقتدار[3].

6) ﴿حُسُومًا﴾: أصلُ (حسم) يدلُّ على قطع الشَّيء عن آخره[4]، ومنه الحَسْم، وهو إزالةُ أثَرِ الشَّيء، يقال: قَطَعه فحَسَمَهُ، أي: أزال مادَّته، وبه سُمّي السَّيف حُسامًا، وقيل للشُّؤم المزيل لأثرِ مَن نالَهُ: حُسوم[5]، تقول: هذه ليالي الحُسوم؛ تَحسِم الخَيرَ عن أهلها[6]، ويأتي بمعنى التِّباع؛ إذا تَتابع الشَّيءُ فلَم يَنْقَطِع أوَّلُه عن آخِره، وإنَّما أُخِذَ من حَسْم الدّاء؛ إذا كويَ صاحِبُه؛ لأنَّهُ يُحْمَى، ويُكْوى بالمِكواة، ثمَّ يُتابع ذلك عليه[7]، وعليه فالمقصود بالحُسوم في الآية: الرّيح الدّائمة القاطعةُ بعذابِ الاستئصال، التي لم تَدَعْ مِن عادٍ أحدًا إلّا هلك[8].

7) ﴿صَرْعَىٰ﴾: أصلُ (صرع) يدلُّ على سقوط شيءٍ إلى الأرض[9]، ومنه الصَّرْعُ، وهو الطَّرْحُ بالأرض، وخَصَّه الأزهريُّ بالإنسان[10]، يُقال: صارَعَهُ فصَرَعَه يَصْرَعُه صَرْعًا وصِرْعًا، فهو مصروعٌ وصريعٌ، والجَمْعُ: صَرْعى، والمُصارَعةُ والصِّراعُ: مُعالَجَتُهما أيُّهُما يَصْرَعُ صاحِبَه[11]، والصَّريعُ مِن الأغْصانِ: ما سَقَطَ إلى الأرْضِ[12]، والمراد بالصَّرْعى في الآية: جَمْعُ صريعٍ، وهو المُلْقى على الأرضِ مَيِّتًا[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سخر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سخر)، وأبو المظفر السمعاني، تفسير القرآن: 6/ 35، وعز الدين الرسعني، رموز الكنوز: 8/ 251.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسم).
(5) الراغب، المفردات: (حسم).
(6) الخليل، العين: (حسم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسم).
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 140، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/ 419.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرع).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (صرع).
(11) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صرع).
(12) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (صرع).
(13) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.

8) ﴿أَعْجَازُ﴾: أصلُ (عجز) يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ وأسفَلِه، واحِدُه: عَجُزٌ[1]، ومنه: عَجُزُ الإنسانِ، وهو مُؤَخَّرُهُ، وبه شُبِّهَ مُؤَخَّرُ غَيْرِهِ، وفلانٌ عِجزَةُ ولَدِ أبَوَيْهِ، أي آخرهم، وصار في التَّعارف اسمًا للقُصور عن فِعْل الشَّيء[2]، وهو ضدُّ القُدرَة، وعَجُزُ النَّخلة: ساقُها الذي يتَّصلُ بالأرضِ مِنها، وهو أغلظُ النَّخلَةِ وأشدُّها[3]، وهو المرادُ في الآية الكريمة.

9) ﴿خَاوِيَةٍ﴾: أصل (خوي): يدلُّ على الخُلوِّ والسُّقوط[4]، يُقالُ: خَوَتِ النُّجوم تَخْوي خَيًّا: أمْحَلَتْ، وذلك إذا سقطتْ، ولم تُمطر في نَوْئِها، وأخْوَتْ مِثْلُه[5]، وخَوَّتِ الإبلُ تخويةً؛ إذا خَمُصت بُطونُها وارْتَفَعَتْ[6]، والخاوي: الخالي، يُقال: خَوَى البيتُ يَخْوي خَواءً؛ إذا خَلا مِن أهْلِهِ[7]، فالخاوي في الآية معناه: الخالي ممّا كانَ مالِئًا له وحالًّا فيه[8]، والمراد: السّاقِطة التي قد خلَت أعجازُها بِلًى وفسادًا[9].

10) ﴿بَاقِيَةٍ﴾: أصلُ (بقي) يدلُّ على ثباتِ الشَّيء على حالِهِ الأولى، يُقال: بَقِيَ الشَّيءُ يبقى بقاءً، وهو ضِدُّ الفناء[10]، ويُقالُ: ما بقيَت مِنْهُم باقيةٌ، ولا وقاهُم من اللّهِ واقية[11]، والباقي ضربان: باقٍ بنَفسِهِ لا إلى مُدَّةٍ، وهو الباري تعالى، ولا يَصحُّ عليه الفَناء، وباقٍ بِغَيْرِهِ وهو ما عَداه، ويَصحُّ عليه الفَناء[12]، ونَفْيُ البقاءِ في الآية مقصودٌ بِهِ الفناء والاندثار، أي: فما تَرى لهُم بقاءً، أي: هلكوا عن بَكْرَةِ أبيهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جاءت الآياتُ تَسوقُ شواهدَ من التّاريخ؛ لتُبَيِّن عاقبةَ مَن كذَّب بهذه الحقيقةِ الكُبْرى، وكيف نَزَلَ بهِم العذابُ في الدُّنيا قبل الآخرة، فكانوا عِبرةً لِمَن بعدَهُم، فقومُ ثمودَ كذَّبوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(2) الراغب، المفردات: (عجز).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خوي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (خوي).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خوي).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 357.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بقي).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (بقي).
(12) الراغب، المفردات: (بقي).

بالبعث والنُّشور، فعاقبهم اللّهُ تَعالى بصاعقَةٍ شديدةِ الصَّوت والبرق قَضَتْ عليهم في لحظةٍ خاطفَةٍ.

وأمّا قومُ عادٍ فقد سلَّط اللّهُ تَعالى عليهم ريحًا شديدةَ البُرودةِ والعَصْفِ، استمرَّت ثمانيةَ أيّام متواصلَةً بلا انقطاعٍ، كانَت ترفَعُهُم وتَطْرَحُهم، حتّى تَمزَّقت أجسادُهُم، فصاروا كأنَّهم جذوعُ نخلٍ فارغةٍ مِن الدّاخل، ساقطةٍ على الأرض، في صورةٍ مؤلِمَةٍ تدلُّ على شدَّة التَّدمير[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾:

استئنافُ العذاب القديمِ لتقويةِ التَّهديد الجديدِ وتعميقِ التَّهويل في القلوبِ

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ استئناف بليغٌ يُرادُ به بيانُ حالٍ مِن أحوال ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، وذلك بعد أن تقرَّر في صَدْرِ السّورة أنَّها أمرٌ لا تُدرِكُه العقول، ولا تبلغه العبارات، فحين قيل: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ أُغلق باب التَّصوُّر، وأُحكِمَتْ دائرة الغَيْبِ والرَّهبة، فجاء هذا الاستئنافُ؛ ليَكْشِفَ نموذجًا سابقًا للهلاك، يُنذر الحاضر بما يُشبهه[2].

ومن جهة التَّركيب والسّياق، على اعتبار أنَّ جملة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ختامٌ مستقلٌّ؛ فإنَّ جملة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ تأتي بعدها استئنافًا يُذكَّر به ما أصاب الأممَ السّابقة، مِن أجْلِ الاعتبار والتَّهديد، وليس لمجرَّد القصِّ والتّاريخ[3].

دلالة التَّعبير بالجملة الفعليَّةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾:

تحقُّق التَّكذيب منهم، مع بيانِ شَناعَتِه

جاءَ التَّعبيرُ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾؛ لدلالة

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 420.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 189.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 608، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.

الفِعْلِ على الحُدوثِ مقرونًا بزمَنِ الفعلِ، وهو هنا الزَّمَنُ الماضي، فيُفيدُ تحقُّقَ صدورِ التَّكذيبِ مِنْهم، فكانوا أحْرياءَ بما ذُكِرَ بعدُ من عقوبةٍ حلَّت بِهِم، كما أنَّ بناءَ الجملةِ الفعليَّةِ يقتضي تقديمَ الفِعْلِ، وهو هنا: ﴿كَذَّبَتْ﴾، فيكون دالًّا على شناعَةِ صنيعِهم وفظاعَتِه.

بلاغة التَّصعيد في الوعيدِ والتَّحذير:

التَّرَقّي في الوعيدِ أشَــدُّ أثَــرًا في نفسِ المُتَلَقّي

يأتي قول الله ﷻ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ تمهيدًا نفسيًّا وهزًّا وجدانيًّا قبل هذا العَرْضِ المفاجئ للعذاب، فالسّياقُ كلُّه مَبْنيٌّ على تصعيدٍ متقَن في الرَّهبة والتَّحذير، ثُمَّ يُلقَى المثالُ العَيْنيُّ بما حدَثَ لثَمودَ وعادٍ؛ لتكتمِلَ الصَّدمة النَّفسيَّة في نفس السامع[1].

نُكتة التَّعبير بالتَّكذيب مادَّةً وصيغةً:

الإمــعــانُ في الباطِلِ بالمُبالَغَةِ في التَّكذيبِ

انتقى البيانُ القرآنيُّ فعل التَّكذيبِ في قول الله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ دون غيرِه؛ لِما في التَّكذيبِ من مَعْنًى زائدٍ على مُطلق الإنكارِ والجحودِ، إلى نسبة الكذبِ إلى الأمر المُكذَّب بِهِ، فيكونُ في التَّكذيبِ جحودٌ وإنكارٌ مع اتِّهامِ الحقِّ بكونِهِ باطلًا.

واختيرَت صيغَةُ التَّفعيلِ (كذَّب)؛ لدلالَتِهِ على الكثرةِ والمبالغَةِ، فهُم لَم يُنكِروا شأنَ الآخرةِ إنكارًا عارضًا، بل أمعنوا في هذا الإنكارِ حتّى صار تكذيبًا شديدًا مع كثرة الآياتِ الدّالَّةِ على صِدْقِ ما كذَّبوا بِهِ، كما أنَّ صوغَ الفِعْلِ ماضيًا يدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ التَّكذيبِ مِنْهُم.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الأقوامِ المكذِّبينَ:

التَّــذكــيرُ بِما كانَ؛ للإنذارِ بِما سَيَكونُ

ذُكِرَ القومُ المكذَّبونَ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ وما بعدها؛ للتَّعريضِ بالمشركين من أهل مكَّة، الذين يُشابهونَهُما

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 608، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.

في تكذيبهم بالبعْثِ والجزاء، فالقرآن الكريمُ يذكِّر بما كانَ؛ ليُنذر بما سيكونُ، والمعنى: أنَّهُ إذا أصرَّ هؤلاءِ على التَّكذيب؛ فإنَّ العذابَ سيَقَعُ بهِم كَما وقعَ بأشباهِهِم[1].

نكتةُ الابتداءِ بعادٍ وثمودَ في السَّرد القصصيِّ:

الابتداءُ بالأقْرَبِ إلى الذّاكرة والعِرق والمكانِ، أمكَنُ في الاعتبارِ والاستِحضارِ

الابتداءُ بعادٍ وثمودَ في سَرْدِ الأمم المكذِّبة في قوله تَعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ﴾، مرتبِطٌ بحكمة الخطابِ وسياق التَّأثير، وذلك من حيثُ الأثرُ النَّفسيُّ في المخاطَبين، فإنَّ ثمودَ وعادًا كانا أشهرَ الأمم الهالكة في ذاكرةِ العرب، وأكثرَها تداولًا في أشعارِهم وأمثالهم وسيَرهم، فكثيرٌ مِن أهل مكَّة كانوا يمرّون بديارهم، ويعرفون آثارَهُم، فذِكْرُهُم هنا أقربُ إلى نُفوسِهِم وأشدُّ إيقاعًا في وجدانِهم، كما قال الله ﷻ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: 13].

وَكذا مِن حيثُ الانتماءُ اللُّغويُّ والعِرقيُّ، فإنَّ ثمود وعادًا من الأمم العربيَّة البائدة، فالعرب يشعرونَ بقُرب عرقيٍّ وثقافيٍّ مِنْهم، فيكتَسبُ التَّحذير من مصيرهم بُعدًا ذاتيًّا أشدَّ وقعًا من ذِكْرِ أممٍ بعيدةِ الزَّمان أو النَّسب.

وكذا من حيثُ الموقِعُ الجُغْرافيُّ، فإنَّ ثمودَ كانت في الشَّمال (الحِجر)، وعادًا في الجنوبِ (الأحقاف)، فهما يُحيطان بأرض الحجاز، فيصير التَّذكيرُ بهما إحاطَةً رمزيَّة بالجزيرة كلِّها من شمالها إلى جَنوبِها، وكأنَّ هذا تهديدٌ بأنَّ الهلاك قد أحاط بالمكانِ، ولَم يبقَ إلّا أن ينقضَّ على مَن في الوسَط.

وبلاغة هذا التَّخصيص تَظْهَر في الابتداءِ بالأقرب فالأقرب في

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 608، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.

الوقْعِ والتَّأثير، لا تخصيص تنقيصٍ أو استثناء، بل يُراد به توجيهُ الموعظة إلى مَن يعرِفُ، ويتَّصل، لا إلى مَن يَجْهَل، ويبتَعِدُ[1].

سِرُّ تقديمِ ﴿ثَمُودُ﴾ على (عادٍ):

براعَةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّف بالألفاظ تقديمًا وتأخيرًا

قُدِّم ذِكْرُ ﴿ثَمُودُ﴾ على (عادٍ) في قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾؛ لأنَّ العذابَ الذي أصابهُم مِنْ جِنسِ القَرْعِ، وذلك أنَّه قد أصابَتْهم الصَّواعِقُ المسمّاةُ في بعضِ المواضعِ القرآنيَّةِ بالصَّيحَةِ، ولأنَّ منازلَهم كانت في طريقِ أهلِ مكَّةَ في رحلتِهم إلى الشّامِ، فهُم يرونَها رؤيةً متجَدِّدَةً[2].

دلالةُ الواوِ في ﴿ثَمُودُ وَعَادٌ﴾:

مآلُ كلِّ مكذِّبٍ بالبعثِ هو العذابُ الأليمُ

الواو في قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ عاطفةٌ دالَّةٌ في أصلِها على مطلَقِ الجَمْعِ، وهي هنا تدلُّ على اشتراكِ ثمودَ وعادٍ في التَّكذيب والعنادِ، مع إبرازِ اتِّحادِهما في المصيرِ، على الرُّغم من اختلاف مكانَيْهما وزمانَيْهما، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ المكانَ والزَّمان لا مدخَلَ لهُما في العذابِ، وإنَّما سببُ عذابِهما هو التَّكذيبُ، فكلُّ من اشتركَ معهما في التَّكذيبِ، فقد اتَّحدَ معهما في المآلِ، وهذا تعريضٌ بكفّار مكَّةَ وغيرِهم منَ المكذِّبينَ.

بلاغة المجازِ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾:

ما آمَنَ من عادٍ وثمودَ إلّا قليلٌ

نُسِبَ التَّكذيبُ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ إلى القومَيْنِ جميعًا، مع أنَّ فيهما مَنْ آمَنَ، كما قال الله تعالى في سياق ذِكْرِ قصَّة ثمود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الشعراء: 157 - 158]، وقال سُبحانَهُ عن نبيِّهم صالحٍ عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [هود: 66]، وقال الله ﷻ عن قوم عادٍ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الشعراء: 139]، وقال سُبحانَهُ عن نبيِّهم هودٍ عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: 58]، فنُسِبَ التَّكذيب في آيةِ الحاقَّة إليهم جميعِهم؛ للدَّلالة على أنَّ المكذِّبين مِنْهم كانوا هم الأكثرينَ، كما أنَّ نسبةَ التَّكذيب إلى ثمودَ وعادٍ فيه ضربٌ مِنْ ضروبِ الإيجازِ، فبدلًا مِن أن يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (كذَّبت أكثر ثمود وعاد)؛ عُدِلَ عن ذلك إلى نسبةِ التَّكذيبِ إليهم على وجهِ العموم، ويُفْهَمُ الاستثناءُ من آياتٍ أُخرى؛ إذ قصصُ القرآنِ لا تُفْهَمُ إلَّا بضمِّ بعض آياتِها إلى بعضٍ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾:

الباء في ﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ، على ما هوَ الأصل في دلالةِ الباءِ، ونُكْتَةُ الإلصاقِ ههنا: الإيماءُ إلى شدَّةِ تكذيبِهم بالقارعةِ، ولزومِهم هذا التَّكذيبَ بحيث لم يَنْفَكّوا عَنْهُ إلى أن حلَّ بهم العذابُ ونزَلَ.

لزومُ عادٍ وثمودَ التَّكذيبَ بالحقِّ

دلالة (أل) في (القارعة):

(أل) في (القارعة) من قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ للعهدِ العلميِّ، والمرادُ بها يوم القيامَةِ، ويجوزُ أن تكون (أل) للكمالِ، أي: الكاملةُ في هولِها وما فيها من ضروبِ المصائبِ والبلايا، ولا تنافيَ بين المعنَيَيْن، فإنَّ القارعةَ التي هي يوم القيامةِ، هي أيضًا كاملةٌ في قرْعِها النّاسَ، أي: ضربِهم وإصابتِهم إيّاهُم بأهوالِها.

عِظَمُ أهوالِ يوم القيامةِ وكمالُها

نكتةُ المجازِ في (القارعة):

القارعةُ اسمٌ من أسماءِ يوم القيامَةِ، كالحاقَّة والواقعةِ وغيرِهما، وقد كَثُرَت أسماؤُها لفخامَةِ شأنِها وعظيمِ خطَرِها، فإنَّ كثرة الأسماءِ دليلٌ على عِظَمِ المُسَمَّى، وسُمّي يوم القيامة: القارعة؛

شِـدَّةُ الأهـوالِ يومَ القيامَةِ

لأنَّها تقرعُ النّاسَ، وتصيبُهم بأهوالها، وعلى هذا فإسنادُ القَرْعِ إليها إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ الأهوالَ تقعُ في زمانِها.

بلاغة العدولِ عن الضَّمير إلى الاسمِ الظّاهر:

تهويلُ المَوْقِف وتفخيمُ الحدَثِ

في قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ وضعٌ للمُظْهَر مَوضِعَ المضمرِ، وذلك أنَّ مقتضى الظاهر أن يَرِدَ في البيان القرآنيِّ: (كذَّبت ثمودُ وعادٌ بها)، أي: بالحاقَّة، لكنَّ القرآنَ الكريمَ عدلَ إلى الاسمِ الظّاهر، فقال سُبحانَهُ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ﴾، والسِّرُّ في ذلك: أنَّ (القارعة) مرادِفٌ جزئيٌّ لـ (الحاقَّة)، وفيها زيادةُ معنى القَرْعِ والضَّرب الشَّديد، ممّا يَزيد من تهويلِ المَوْقِف وتفخيم الحدَث، ولأنَّ إظهارَ الاسمِ يزيدُ في استحضارِ هَوْلِ المصير أمامَ السّامع، بخلافِ الضَّمير؛ فقد يُقَلِّلُ شيئًا مِنَ التَّأثير، ويُضْعِفُهُ[1].

دلالَةُ اصْطِفاء القارعَةِ دونَ غيرها مِن أسماء يوم القيامَةِ:

تصْويرُ ما تُحْدِثه القارعةُ مِن فزعٍ عـامٍّ واخـتـلالٍ كونيٍّ شامِلٍ

في قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ وصفٌ شديدُ الوَقْعِ، اخْتيرَ دونَ غيره من أسماء يوم القيامة؛ لِما يَحْمِلُه مِن معاني الصَّدمة والرُّعب، ولِما في لفظِ (القارعة) من تصويرِ ما تُحدثُهُ من فَزَعٍ شاملٍ واضطرابٍ كونيٍّ، فهو مِن مادَّة (قرع)، وهي تدلُّ على الضَّرب العنيفِ الذي يُحدِثُ صوتًا مفاجئًا يُزْعِجُ السَّمع، ويُرْهِقُ النَّفْسَ، فهي قارعةٌ للنُّفوسِ وللوجودِ.

فأمّا مِنْ جهة المعنى النَّفْسيِّ؛ فإنَّ (القارعة) تُشعر السّامع بحدثٍ مفاجئٍ مدمِّرٍ يهزُّ الكيان، فهي تقرعُ القلوب بالأهوال، حتّى لا يثْبُتَ معَها عقلٌ، ولا يطمئن فؤادٌ، فتكون القيامَةُ قاصمةً لا مهربَ مِنْها، ولا تَمْهيدَ لها.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 608، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 21، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.

وأمّا من جهة المَعْنى الكَوْنيِّ؛ فإنَّ القارعة لا تُصيب النّاس وحدَهُم، بل تقَعُ على الموجوداتِ جميعًا، فتُدَمَّرُ الجبالُ، وتُدَكُّها، كأنَّها قُرِعت بمطرقةٍ سَماويَّة لا قِبل لها بها، وتُخْسَفُ الأرضُ، وتُطْمَسُ النُّجوم، وتَنْكَدِرُ الكواكِبُ، وتُكَوَّر الشَّمس والقمَر؛ كلُّ ذلك يُصوَّر بضربٍ هائلٍ يصيب الكونَ في نظامِه، وبهذا كانت (القارعة) تعبيرًا عن تَهْشيم نظامِ العالَم، كما يُهشَّم الشَّيء بالقَرْعِ الشَّديد.

القارعةُ تَقْرَعُ النُّفوس، وتقرَعُ الوُجودَ

فبينَما تدلُّ أسماءُ يوم القيامَةِ - مثل الطّامَّة والصاخَّة - على جانبٍ مِن جوانبِ القيامة؛ فإنَّ القارعة تختصُّ بوصفِ أثَرِها النَّفسيِّ والكونيِّ معًا، فهي قرعٌ للنُّفوس، وقرعٌ للوجود[1].

معنى الفاءِ ودلالَتُها في قولِهِ: ﴿فَأَمَّا﴾:

بيانُ عاقِبَةِ التَّكذيبِ

الفاءُ في ﴿فَأَمَّا﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ عاطِفَةٌ تفريعيَّةٌ[2]، فهي تُفرِّعُ على التَّكذيب المذكورِ في قوله تعالى قبلُ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾، فكأنَّ المعنى: كذَّبت ثمودُ وعادٌ بالقارعةِ، فكان جزاءُ ثمودَ على هذا التَّكذيب أنَّهم أُهلكوا بالطّاغية.

كما أنَّ الفاءَ تُعْطي معنى التَّعقيبِ أيضًا، وذلك يقتضي أنَّ إهلاكَهُم جاءَ بعد إمعانِهم في التَّكذيبِ مِنْ غيرِ مهلةٍ، والمرادُ أنَّهم لم يُمْهَلوا في تعذيبِهم إلى يوم القيامَةِ، بل عُجِّل لهم نصيبٌ من العذابِ في الدُّنيا، مع ما ادَّخره الله تعالى لهم من النَّكالِ في الآخِرةِ.

دلالة (أمّا) في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾:

كمالُ عَدْلِ اللهِ تعالى وشديدُ بطشِهِ وانتقامِه

(أمّا) من قول الله سُبحانَهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ[3]، فهي تفصِّل حالَ المكذِّبين في العقوبةِ، وتُفرِّق بين المجموع المذكورِ قبلُ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾، فلم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 115.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

يذكُر النَّظم القرآنيُّ أنَّهم عوقبوا على وجهِ الإجمالِ، بل فرَّق بينَهم في جنسِ العقابِ ونوعِهِ؛ إظهارًا لكمال عَدْلِ الله تَعالى وشديدِ بطشِهِ، فإنَّه سُبحانَهُ يُجازي كُلًّا على عَمَلِهِ، وله ﷻ مِنْ أنواعِ النَّكالِ والعذابِ ما يكونُ عِبرةً وعظةً لكلِّ مكذِّبٍ.

نُكْتَةُ تقديمِ ثمودَ في النَّظم في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾:

تـقـديـم ثـمـودَ لـقُـرْبِ الـعِـبْرَةِ ومُـنـاسَـبَـة الصَّيحَة لمعنى القَرْعِ التَّهْويليّ

قُدِّمت ثمودُ على عادٍ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ لنُكَتٍ بلاغيَّة دقيقة، تتعلَّق بقُرْبِ المكان، وشدَّة المُشابهَةِ، وتنظيمِ عَرْضِ العذابِ في السّياق.

فأمّا التَّقديم اعتبارًا بقُرب الدّيار؛ فقد بَدَأت الآية بثمودَ؛ لأنَّ ديارهم أقربُ إلى أرض قريش، فهُم أهل الحِجْر، تقَع مساكِنُهم شَمالَ الحِجاز، ويعرفُها العرب، بل يمرّون بها في أسفارهم، وقد رأوا آثارَها، وشَهِدوا رُسومَها، وهذا القُرْبُ يجعَلُ العبرة أقربَ أثرًا في النَّفس، وأشدَّ تذكيرًا بهلاكٍ ممكنِ الحُدوث.

وأمّا التَّقديم لمناسبةِ صيحةِ ثمودَ لمعنى (القارعة)؛ فإنَّ الصَّيحة التي أهْلَكَت ثمودَ تُماثِلُ (القارعةَ) في شدَّة صَوْتِها وفَجْأتِها، بل قد وُصفت في مواضعَ أُخْرى بالصّاعقة، وفي بعضها ارتبطَت بالرَّجفة، ممّا يجعلها أشبهَ بنفخة الصّور التي تُبعثر ما في القبور، وتَقْرَعُ الوُجود بقرعٍ مُزَلْزِلٍ، وهذا التَّناسُقُ يَجْعَلُ ذِكْرَهُم هُنا متلائمًا مع التَّهويل الصَّوتيِّ الذي توحي به لفظَةُ (القارِعَة).

وأمّا التَّقديم لترتيبِ التَّفصيل بحسب المقام، فقد أوجز الحديثُ عَن ثمودَ بذِكْرِ (الطّاغية) دونَ تفصيل، وأُخِّر ذِكْرُ عادٍ؛ ليُفصَّل في مصيرِهم تفصيلًا: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ إلى آخر البيان، فكان في تقديم ثمودَ تمهيدٌ سريعٌ، وفي تأخيرِ عادٍ تدرُّجٌ في التَّهويل والتَّفصيل؛ ليَبْلُغَ الغَرَضُ قمَّة الإنذار عند انتهاءِ مَشْهَدِهم[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 342، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

بلاغةُ أسلوبِ التَّقسيمِ في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ﴾، ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾:

أسلوبُ التَّقسيم يُبرِزُ وحدةَ الجَريمَةِ وتعدُّدَ أهوالِ العُقوبَة

في عَرْضِ عذابِ ثمودَ وعادٍ في قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، جاء الأسلوب القرآنيُّ على طريقَةِ أسلوبِ التَّقسيم، وليس هذا من اللَّفِّ والنَّشْرِ؛ لِما تَقَرَّر أنَّ من شرط اللَّفِّ والنَّشْرِ تَرْكَ الرَّبْطِ إلى فِطْنَة المتلقّي، أمّا ههنا؛ فقد رُبِطَ كلُّ تفصيلٍ بإجمالِهِ، فكان هذا من أسلوب التَّقسيم، وأسلوبُ التَّقسيم - في بعضِ صورِهِ - كأسلوب اللَّف والنَّشر، "في ذِكْرِ مُتَعدِّدٍ أوَّلًا مفصَّلٍ أو مجملٍ، وإتباعِهِ بمُتَعَدِّد آخرَ يتعلَّق كلُّ واحدٍ من أعدادِه بواحدٍ من المتعدِّدِ السّابق، باستثناء قَيْدٍ واحدٍ، فالتَّقسيم فيه تعيينُ كلِّ واحدٍ من المتعدِّدِ اللّاحق بِصاحبِه من المتعدِّد السّابق، بخلاف اللَّف والنَّشر؛ إذِ القَيْدُ فيه أن يكون بدونِ تعيينٍ، وأن يكون الاعتمادُ فيه على فهْمِ المتلقّي، وهذا هو الفرقُ بينَهما"(1).

ففي قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ جُمِع بين الأمَّتَين في التَّكذيب، ثُمَّ فُصِّلَ ذلك على طريقة التَّقسيم في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، ففُصِّل في نوع العذابِ الذي لَحِقَ كلَّ أمَّةٍ.

وبلاغة هذا الأسلوبِ ههنا: أنَّ الجَمْعَ في البدءِ يوحي بأنَّ المصير واحِدٌ للتَّكذيب الواحد، فيُشْعِرُ السّامعَ أنَّ كلَّ مكذِّب مهدَّدٌ بمثل ما سبَق، ثُمَّ يأتي التَّفصيل؛ ليُظهر اختلافَ وسيلة العذاب، لا أصلِهِ، فثمودُ عُذِّبوا بالصّاعقة (الطّاغية)، وعادٌ بالرّيح الصَّرْصَرِ العاتيَةِ، وهكذا يتوزَّع التَّهويل على جهتين: توحيدٍ في الجريمة، وتنَوُّعٍ في الهلاك، فيتَحَقَّق أقصى أثَرٍ مِنَ التَّخويف والاعتبارِ.

وعلَّة اختيار هذا الأسلوب: أنَّه يُبقي الذِّهنَ منتبهًا، لا يستقرُّ

(1) حبنّكة، البلاغة العربية: 2/ 408 - 409.

على نمَطٍ واحِدٍ، بل يتلقّى التَّهديد العامَّ أوَّلًا، ثُمَّ يتفاجَأُ بالتَّفصيل المروِّع ثانيًا، وهذا أبلغُ في الزَّجر، وأقوى في دفع النَّفس إلى اليقظة والانتباهِ، قبلَ أن يَنْزِلَ بها ما نَزَلَ بالأوَّلين[1].

معنى الفاءِ في ﴿فَأُهْلِكُواْ﴾ ودلالَتُها:

تعجيلُهم بالعقوبَةِ الماحقَةِ

الفاءُ في ﴿فَأُهْلِكُواْ﴾ من قول الله سُبحانَهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ رابطةٌ لجواب (أمّا)؛ إذ فيها مَعنى الشَّرْطِ والتَّفصيل، فهي تدلُّ على أنَّ الهلاكَ مرتبِطٌ بثمودَ ولازِمٌ لها؛ جزاءً على تكذيبِهم بالحقِّ الذي جاءَهُم، وفي الفاءِ أيضًا معنى التَّعقيبِ، فهي تقتضي أنَّ إهلاكَهُم كان سريعًا عاجِلًا؛ لأنَّ العذاب واقعٌ عليهم في الدُّنيا، والدُّنيا مهما طالَ وقتُها؛ فإنَّ زمنَها مقارنَةً بالدّار الآخرةِ قليلٌ.

سِرُّ التَّعبير بفعل الإهلاكِ مادَّةً وصيغَةً:

إهلاكُ ثمودَ إهلاكَ استِئصالٍ

عُبِّر بفعل الإهلاك في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾؛ لدلالتِهِ على الاستئصالِ التّامِّ، وفي اختيار فعل الإهلاك دون الهلاكِ - إذ لم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (فأمّا ثمود فهَلَكوا) - دَلالَةٌ على أنَّ ما حلَّ بهم كان عقوبةً مقصودةً لا أمرًا عارضًا وقع اتِّفاقًا، وهذا يقتضي شدَّةَ هذه العقوبةِ وعِظَمَها.

نُكْتَةُ بناء الفِعْلِ (أُهْلِكوا) للمفعولِ:

توجيهُ الانتباهِ إلى نَوْعِ العَذابِ لا إلى مُجْرِيهِ

بُنِيَ فعلُ الإهلاكِ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُهُ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ للعِلْمِ بهِ، وتعظيمًا لشأنِهِ، وتهويلًا لأمر الإهلاكِ، ولتوجيهِ العنايةِ إلى نوعِ العذابِ لا إلى خصوصِ المعذِّبِ المُهْلِكِ لَهُم.

نوعُ الباءِ ودلالَتُها في ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾:

الباءُ في ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 425، والسيوطي، الإتقان: 3/ 320، وحبنّكة، البلاغة العربية: 2/ 403، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ باءُ السَّبَبيَّة[1]، أي: إنَّ الصَّيحةَ العظيمةَ كانت سببًا في إهلاكِهم وإفنائِهم.

دلالَةُ (أل) في (الطّاغية):

أُهلِكَت ثمودُ بالصَّيحة العظيمةِ

(أل) في (الطاغية) من قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ دالَّةٌ على العَهْد العلميِّ، والمرادُ الأمرُ المُجاوِزُ للحدِّ في الإهلاكِ، وهي الصَّيحَةُ أو الصّاعقة التي اسْتُؤْصِلوا بها، ويجوز أن تكون (أل) للكمالِ، أي: أُهلكوا بالأمر الكاملِ في الطُّغيانِ بحيث أبادَهُم، واستأصلَ شأفتَهُم، ولا تنافيَ بين المعنَيَيْنِ، كما لا يخفى.

سِرُّ التَّعبير بالطّاغية مادَّةً وصيغَة:

وصْفُ الصَّيحة بالطّاغية يُجسِّدُ تجاوُزَها حدودَ المألوف في الفَتْك والرُّعب

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، سُمّيَتِ الصَّيحةُ بالطّاغية؛ لِما انطوت عليه من شدَّة خارقة، وبأسٍ متجاوزٍ حدَّ المُعْتاد، حتّى خرجت عن مقاييسِ الهلاك المألوف في تصوُّر البشر.

بلاغَةُ استعمالِ (الطّاغية) بدل (الصَّيحة)

ولذلك لم يُصرِّح باسم العذاب، بل وُصف بأثرِه وهَيْئَتِه النَّفسية، فجاء بلفظ (الطّاغية) الذي يُطلَق عادةً على الإنسان الجائر في بطشه، فشبَّه اللّهُ تَعالى الصَّيحة بذلك؛ لشدَّة ما أحدثته من الهلاك المُفاجئ الصّاعق، وهذا مِن الاستعارة؛ إذ شُبِّه أثر الصَّيحة في بطشها بما يفعله الطّاغي؛ إذا انفردَ بالعُدْوان.

التَّعبير بالقوَّة لا بالوسيلَةِ

فالصَّيحة أداةٌ، لكنَّها هنا ليست المخصوصَةَ بالذِّكر، بل المخصوصُ هو ما أحدثتْهُ من طُغيانٍ وُجوديٍّ، أي: الذي تجاوز كلَّ مقياسٍ في قوَّة الصَّوت وأثَرِه، فهي صيحة، ولكنْ ليسَت كأيِّ صيحة، بل هي (الطّاغية)، أي: الصَّيحة التي تجاوزت الحدَّ حتى ما عاد لها مثيلٌ.

أثَرُ هذا الإطلاقِ في التَّهويل

فحين يسمَعُ السّامع أنَّ ثمودَ قد أُهلكوا ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، يتَّسِع ذِهْنُه

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

لتَصَوُّر كلِّ ما هو بالغٌ في العذابِ شدَّةً عظيمةً، دون أن يُحصَر في صورةٍ واحدة، فيزيد ذلك من سعَةِ التَّخييل وعُمْق التَّأثير[1].

مِن معاني الطّاغية ههنا عاقِرُ النّاقة

وقد ذهب بعضُ أهل التَّفسير إلى أنَّ المرادَ بالطّاغيةِ ههنا هو عاقِرُ النّاقة[2]، فتكونُ التّاءُ في (الطّاغية) للمبالغَة، والمقصودُ: أنَّ إهلاكَهُم كان بسبب عاقِرِ النّاقة؛ لكونِهم رَضوا بصنيعِه. وفي هذا تحذيرٌ شديدٌ من مخالفةِ أمرِ الله تَعالى، فإنَّ العقوبةَ قد تَعُمُّ بسبب واحدٍ؛ إذا رضيَ الباقونَ، أو لم يُنكروا عليه، كما قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 78 - 79].

نوعُ الواوِ ودلالَتُها في ﴿وَأَمَّا عَادٞ﴾:

بيانُ اشتراكِهما في العاقبَةِ القَبيحَةِ

الواو في ﴿وَأَمَّا﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾؛ وذلك لما بينَهما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَيْن، فإنَّ الجملتَيْن اتَّحَدَتا في الخَبَريَّة، وبينَهما تناسُبٌ في اللَّفظ والمعنى، أمّا في اللَّفْظِ فاشتمالُهما على حرف الشَّرْطِ والتَّفصيل (أمّا)، وتَكرارُ فعل الإهلاكِ وبناؤه للمفعولِ، وأمّا في المعنى فاتِّحادُهما في العاقبة السَّيِّئَة والجزاءِ القبيح.

دلالَةُ (أمّا) في قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ﴾:

بيانُ كمالِ عَدلِ الله تعالى وشديدِ بَطْشِه

(أمّا) من قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ حرفُ شرطٍ وتفصيل[3]، فهي تُفَصِّل حالَ المكذِّبين في العقوبةِ، وتُفرِّق بين المجموع المذكورِ قبلُ في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 598، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 254، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 328.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ﴾، فذُكِرتْ قَبْلُ عقوبةُ ثمودَ وإهلاكُهم بالطّاغية، وهي الصَّيْحة والصّاعقة، وذُكِرَ هنا إهلاكُ عادٍ، فلَم يَذكُر النَّظم القرآنيُّ أنَّهم عوقبوا على وجهِ الإجمالِ، بل فرَّق بينَهم في جنسِ العقابِ ونوعِهِ؛ إظهارًا لكمال عَدْلِ الله تَعالى وشديدِ بطشِهِ، فإنَّه سُبحانَهُ يُجازي كُلًّا على عَمَلِهِ، وأنَّ له ﷻ مِنْ أنواعِ النَّكالِ والعذابِ ما يكونُ عبرةً وعظةً لكلِّ مكذِّبٍ.

دلالَةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأُهْلِكُواْ﴾:

الفاءُ في ﴿فَأُهْلِكُواْ﴾ من قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ رابطةٌ لجوابِ (أمّا)؛ إذ فيها مَعنى الشَّرْطِ والتَّفصيل، فهي تَدُلُّ على أنَّ الهلاكَ مرتبِطٌ بعادٍ ولازِمٌ لهم؛ جزاءً على تكذيبِهم بالحقِّ الذي جاءَهُم، وفي الفاءِ أيضًا معنى التَّعقيبِ، فهي تقتضي أنَّ إهلاكَهُم كان سريعًا عاجِلًا؛ لأنَّ العذاب واقعٌ عليهم في الدُّنيا، والدُّنيا مهما طالَ وقتُها؛ فإنَّ زمنَها مقارنَةً بالدّار الآخرةِ قليلٌ.

بـيـانُ لـزومِ الهلاكِ بِهِم

نوعُ الباءِ ودلالَتُها في ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾:

الباءُ في ﴿بِرِيحٍ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ باءُ السَّبَبيّة[1]، أي: إنَّ الرّيحَ الشَّديدةَ البرودةِ المفرطةَ في القوَّةِ كانت سببَ إهلاكِهِم.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ (ريح):

نُكِّر لفظُ (ريح) من قول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾؛ للدَّلالَة على التَّعظيم والتَّفخيم، فهي ريحٌ عظيمةٌ شديدةٌ، وفي التَّنكيرِ مَعْنى النَّوعِ أيضًا، أي: هي ضَربٌ مِن الرّيح غيرُ معتادٍ، وهذا المعنى والذي قبلَهُ متآيلانِ.

بـيـانُ عـظـمَـةِ الـعَـذابِ الحالِّ بِعادٍ

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

سِرُّ إيثار التَّعبير عَنِ الرّيح بالإفرادِ:

الرّيحُ للعَذاب والرّياح للرَّحمَة، في غالِبِ الاستعمالِ القُرآنيّ

اختار النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبير عن الرّيح مفردةً، في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾؛ جريًا على غالب الاستعمال القرآنيِّ في إطلاق الرّيح مفردةً على ما كانت عذابًا، والمجموع منها على ما كان رحمةً وامتنانًا، ووجهُ ذلك - كما قال ابنُ عطيَّةَ - "أنَّ ريحَ العذاب شديدةٌ ملتئمَةُ الأجزاءِ كأنَّها جِسْمٌ واحِدٌ، وريحَ الرَّحمة ليِّنة مُتَقَطِّعة، فلذلك هي رياحٌ"[1].

سِرُّ وصفِ الرّيح بـ ﴿صَرْصَرٍ﴾:

اجتماعُ شدَّةِ الرّيح في ذاتها وشدَّةِ صَوْتِها

وُصِفت الرّيحُ بكونِها صرصرًا في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾؛ زيادةً في تعظيمِها وبيانِ شدَّتِها، وأنَّها جمَعت مع ذلك كونَها صرصَرًا، أي: بالغةً في البرودةِ حدًّا عظيمًا، كما أنَّ فيها دلالةً على شدَّة صوتِها وإزعاجِهِ، وأنَّه صوتٌ متكرِّرٌ كما يُشْعِرُ به تَكرار المقطَع الصَّوتيِّ لـ ﴿صَرْصَرٍ﴾.

بلاغة الاستعارة في وصف الرّيح بالعتوّ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾:

الرّيح المهلكةُ رمزٌ للطُّغيان الكونيّ؛ إذا غضِبَ اللهُ تعالى

وُصِفت الريح بـ (العاتية) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾؛ للدَّلالة على تجاوُزِها الحدَّ في القوَّة والبطش، لا على مجرَّد شدَّتها الطبيعيَّة، فلفظة ﴿عَاتِيَةٍ﴾ مأخوذة من العتوِّ، وهو في الأصلِ: التَّكبُّر والتَّجبُّر[2]، فشُبِّهت الرّيحُ في شدَّتها بإنسانٍ متكبِّرٍ لا يَخضَعُ لقيدٍ، ولا يسمَعُ لأمْرٍ، فهي ريحٌ طاغيَةٌ متمرِّدة على نظام الطَّبيعة المألوف، لا تسير برِفْقٍ واعتدالٍ، بل تندَفِعُ بقوَّة، كأنَّها تُمارس العصيان والعنادَ ضدَّ القوم المُهْلَكينَ، ففي التَّركيب الوصفيِّ استعارةٌ تمثيليَّة، وهذه الاستعارة تُصَوِّر الرّيح وكأنَّها ذات إرادة متمرِّدة، فيكون

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 233.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (عتو).

الهلاكُ بها أبلغَ وأرعبَ؛ لِما تحمِلُه من دلالة على بطشٍ غير مسبوقٍ وانفلاتٍ كونيٍّ شديدٍ[1].

بلاغةُ الكناية في وصف الرّيح بالعُتوّ: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾:

خـروجُ الرّيح في شِدَّتها عنِ المألوف

ذكرَ بعضُ أهل العلْم في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أنَّ معناه: عَتَتْ على خُزّانها، أي: على الملائكة الموكَّلين بها، وهذا القول يُراد به الكناية عن شِدَّتها المُفْرطة وخروجها عن المألوف في القَدْرِ والنِّظام، لا أنَّ الرّيح عصتْ أمرَ اللهِ تَعالى حقيقةً؛ إذ كلُّ شيء في الكون يجري بأمره، بل المعنى: أنَّ هذه الرّيح جاءت بلا ضَبْطٍ ولا تقييد، ولا رفق في التَّقدير، بل خرجت من نطاقِ الرَّحمة إلى دائرة النِّقمة، وهذا التَّعبير من المجاز التَّمثيلي الذي يصوِّر الفظاعةَ بأبلغِ صورة[2]، فدارَ وصفُ الرّيح بالعُتوِّ بين الكنايةِ والاستعارةِ، ولكلٍّ مِنْهُما وجهُهُ وتوجيهُهُ.

موقِعُ جملةِ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ ممّا قبلها:

الـهـلاكُ لا يأتي مِنَ الطَّبيعة بَل مِن تسخير اللهِ تَعالى حينَ يَشاءُ

جاء التَّركيبُ في قوله تَعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾؛ استئنافًا يُفصِّل كيفيَّة الهلاك بالرّيح، بعد أن وُصف نوعُها بكَوْنِها ﴿صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فجاءت هذه الجملةُ بيانًا يُظهر مدَّة تَسْخيرِها، واستمرار عذابِها فيها بلا انقطاعٍ.

وذهبَ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذه الجملةَ واردَةٌ لرَفْعِ توهُّم؛ إذْ رُبَّما يُخَيَّل إلى متوهِّم ما أنَّ تلك الرّيح العاتيةَ كانَت حادِثَةً طبيعيَّة، أو اضطرابًا فلكيًّا دوريًّا، فجاء النَّصُّ ليَرْبِطَها بالتَّسخير الإلهيِّ المباشر، أي: أنَّ اللهَ تَعالى هو مَن أطْلَقَها عليهم بِقَصْدِ الإهلاكِ والتَّأديب، لا بموجبِ الطَّبيعة ولا بِحُكْمِ الكَواكِب[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 599، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 255، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 116.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 599، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 610، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 22.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 22.

بلاغةُ استعمال مادَّةَ (سخر) في قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾:

جاء فعل (سخَّر) في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، لا ليُبيِّن مجرَّد الإرسال، بل ليُصوِّر ما هو أبلغُ من ذلك، وهوَ أنَّ الريح كانت مأمورةً بالإهلاك، لا تَملِكُ خيارًا في الانصرافِ أو الهدوء. وأصل التَّسخير في اللُّغة يدلُّ على الإلزام والإجبارِ على الفعل، فهو غَصْبٌ على العمل، فجاء هنا ليَدُلَّ على أنَّ اللّه تَعالى كوَّن الرّيح الصَّرصر تكوينًا مخصوصًا، جعلَها تتجاوَزُ ما يُعرف مِن خَصائِصِ جِنْسِ الرّياح، حتّى كأنَّها خرجَت عَن طِباعِها وصارَت آلَةً نازلَةً للعَذابِ فَقط.

اختصاصُ هذه الرّيحِ بالإهلاكِ والتَّدمير

فقوله تَعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ فيه معنًى ضمنيٌّ للإرسال، لكنِ اخْتيرَ فعلُ (سخَّر) بدلًا من (أرسل)؛ لأنَّ في التسخير تخصيصًا واستدامةً وتقييدًا باتِّجاه واحدٍ، وهو العدوان لا الرَّحمة، والهَدْمُ لا الإحياء، وهذا أبلَغُ في التَّهويل وأشدُّ في الوصف، فليس الأمرُ مجرَّدَ ريحٍ عاتيَةٍ، بل هيَ ريحٌ مُسخَّرة عليهم بالضّيق والإحاطة والإلحاح، كما يُسخَّر السَّوط للجلد، أو النّار للإحراق، فلا تملِك أن تُراعي، ولا أن تنصرف[1].

دلالة التَّعبير بفعل التَّسخير ماضيًا في: ﴿سَخَّرَهَا﴾:

في التَّعبير بفعل التَّسخير ماضيًا في قول اللّه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ دلالةٌ على قصد التَّدْمير وتحقُّقِه، فهي ريحٌ موجَّهة مأمورةٌ، لا عاصفَةٌ عَمْياءُ، وهذا فيه إشارة إلى أنَّ الكونَ مسخَّر بإرادةِ اللّهِ تَعالى وحده، لا بعشوائيَّة المدارات أو حتميَّة الأجرام.

حـين تُـسـخَّـر أدواتُ الرَّحمة للعذاب، يكون الهلاكُ مقصودًا لا عارضًا

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾:

أصلُ التَّسخيرِ: الغصبُ على عملٍ ما، وقد استعيرَ في قول اللّه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾؛ "لتكوين الرّيح الصَّرصرِ تكوينًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 117.

متجاوِزًا الحدَّ المتعارَفَ في قوَّة جِنسِها، فكأنَّها مُكرهةٌ عليه"[1]، والمعنى: أنَّ الرّيح لم تأتِهم على النَّحو المعهودِ المعروفِ، بل جاءَتهم على وجهِ القَسْرِ والقَهْر، وفي هذا تهويلٌ لشأنِ العذابِ، وبيانٌ لعظمةِ القوَّة الإلهيَّة.

تهويلُ شأنِ العذابِ وبيان عظمَةِ القوَّة الإلهيَّة

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (على):

عُلِّقَ فعل التَّسخير بحرف الجرِّ (على)، في قول الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾، وهو حرفٌ دالٌّ في أصلِه على الاستعلاء، وهو هنا دالٌّ على الاستعلاءِ الحقيقيِّ؛ وذلك بأنْ كانت هذه الرّيح تأتيهم مِن كلِّ جانبٍ، فأحاطَت بِهِم، واستَعْلَتْ عليهم، كما أنَّ تعليقَ فعل التَّسخيرِ بالحرف (على) فيه إيماءٌ إلى تَضْمينِهِ فعلَ (سلَّط)، والمعنى: سَخَّرها، وسلَّطها عليهم على وجْهِ التَّعذيب والإهلاكِ.

تسخيرُ الرّيح وتَسليطُها عَلى المُكَذِّبينَ

دلالَةُ التَّنصيص على مُدَّة التَّسْخيرِ:

لما كان اسمُ هذه السورة الحاقَّة، وكان من مقاصدها تحقيقُ الأمور، وكشف المشكل وإيضاح الخَفيّ؛ ذُكِر زمنُ عذابِهم على وجه التَّحقيق بما لم يرد في مواضِعَ أخرى، فذُكِرَتِ الأيام والليالي، فقال سُبحانَه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾[2].

مِن جُمْلَةِ تحقيقِ الأمورِ وإيضاح الخَفيِّ تحقيقُ زمَنِ عَذابِهِم

نُكْتَةُ تقديم اللَّيالي على الأيّام:

قُدِّمت اللَّيالي على الأيّام في قول الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾؛ لأنَّ المصائبَ فيها أشدُّ وأفظَعُ وأقبح؛ لقلَّة المغيث والنّاصر، وعدم العِلْم بالمَآخِذ وخفاءِ المَقاصِد والمَنافذ، ولأنَّ العددَ معَها يُذكَّر في اللَّفْظ؛ لكونِ واحدِها مؤنَّثًا (ليلة)، وتذكيرُ اللَّفظ أدَلُّ على القوَّة في المعنى، وقُدِّمتِ اللَّيالي أيضًا؛ لأنَّها سبعٌ، والسَّبْع أجمَعُ العدَدِ، وبهِ تَحْصُلُ المُبالغَةُ في الآحاد، وليس في تقديمِ

المصائبُ في اللَّيل أشَدُّ وأفظَعُ لقلَّة المُغيث وخَفاء المَنافِذ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 117.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 344.

اللَّيالي دلالَةٌ على أنَّ ابتداءَ العَذابِ كانَ فيها؛ لأنَّ ذلك يلزَمُ مِنْهُ أن تكونَ اللَّيالي بعدد الأيّام[1].

بلاغَةُ تَنْكير ﴿لَيَالٍ﴾ و﴿أَيَّامٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿لَيَالٍ﴾ و﴿أَيَّامٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾؛ تعظيمًا للزَّمن الذي وقع فيه التَّعذيبُ والإهلاكُ، وللإيماءِ إلى أنَّ الرّيحَ لم تَفْتُر لحظةً خلالَ هذا الزَّمَنِ جميعِهِ[2].

عـدَمُ انقِطاعِ الـرّيـح مُـدَّةَ تعذيبِهِم

دلالاتُ اصْطفاء لفظِ ﴿حُسُومًا﴾:

جاءت كلمةُ ﴿حُسُومًا﴾ في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾؛ جامعةً وجوهًا متعدِّدة من العذابِ المُتَّصل والاستئصالِ المُحْكَم، ممّا يكشف عن براعة البيانِ القرآنيِّ في اختيار اللَّفظ الجامع لأقصى الأثر، ومِنْ ذلك:

إيـثـار لـفـظ (حـسـومًـا) لتكثيف معاني الاستـئـصـال والـــدَّوام والـعـذابِ المُسْتَرْسِل

أوَّلًا: إذا حُمِلَ لفظُ ﴿حُسُومًا﴾ على أنَّهُ جمع (حاسم)، كما في نظائرها من جمع الصِّفات، كقُعود، وشُهود، فإنَّه يكون قد غُلِّبت (الأيّام) على (اللّيالي) في اللَّفظ؛ لكونها أكثرَ عددًا، فيكون المعنى: أنَّها أيّامٌ متتابعة لا ينقَطِعُ فيها العذابُ لحظَةً، وهي من الدَّوام المُرْعِب الذي لا يترك فرصةً للتَّنفُّس ولا أملًا في النَّجاة.

ثانيًا: يجوز أن تكونَ ﴿حُسُومًا﴾ من (الحَسْم) بمعنى: القَطْع، فالوصفُ يشيرُ إلى أنَّ تلك الأيّام كانت قاطعة، تستأصِلُ بلا رحمة، كما يُحْسَمُ الدّاءُ بالمِكْواة، فيكون فيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ تَبَعيَّةٌ[3]، وهذا من أبلَغِ ما يُقال في الإبادة، حتّى شُبِّه العذابُ بالسَّيف أو الكَيِّ المُسْتَأْصِل.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 344.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 344.
(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 243.

ثالثًا: ﴿حُسُومًا﴾ يَحتمِلُ أن تكون مصدرًا لا جمعًا، وهو منصوبٌ على أنَّهُ مفعولٌ لأجله، أي: سُخِّرت لأجل الحَسْم والاستئصال، والمعنى: أنَّ اللّه تَعالى أرسلها لهدفٍ محدَّد، لا عرضٍ طارئ، وهو القَطْعُ التّامُّ لأصلهم وبقاياهُم.

وكل هذه المعاني تَحْتَمِلُها هذه اللَّفظة الواحدة، ممّا يدلُّ على أنَّ اختيار ﴿حُسُومًا﴾ من الإعجاز البيانيِّ؛ إذ حَمَلَت في طيّها مَعْنى التَّتابعِ، والاستئصالِ، والقصديَّةِ في الإهلاك، وكلُّ ذلك في موضعٍ واحدٍ يقتَضي الرَّهبة والاعتبارَ[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَتَرَى﴾:

بيانُ حالِهم في الهلاك بعدَ انقِضاء زمَن الرّيح المُدمِّرة

الفاءُ في ﴿فَتَرَى﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستئنافِ[2]، والجملةُ بعده مستأنَفةٌ لبيانِ ما آلَ إليهِ أمْرُهم بعد الرّيح التي دامَت سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّامٍ كاملاتٍ.

ويجوزُ أن تكون الفاءُ عاطفةً[3]، وهي دالَّةٌ على التَّعقيب، وذلك مفيدٌ أنَّ الرّيحَ بمجرَّد انقضاءِ زمانِها الذي قدَّره اللّه تعالى لعصْفِها عليهم إهلاكًا وتدميرًا؛ صار أمْرُهم على النَّحو المذكور في الآيةِ، مِنْ كونِهم مَوْتى وهَلْكى.

مَعْنى الرُّؤية في: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾:

بيانُ تَحَقُّقِ هَلاكِهم

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ رؤيةٌ بصريَّةٌ، والمعنى أنَّ الرّائيَ يراهُم لو كان حاضرًا تلكَ الحال[4]، ويُؤيِّدُ هذا المعنى التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ الدّالِّ على

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 599، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو حيان، البحر: 10/ 255، وأبو السعود، إرشاد العقل: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 117، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 190.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 29/ 58.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 190.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.

الحالِ، وهذا يُفيدُ تحقُّقَ هلاكِهم وإدراكَ ذلك على وجهِ الضَّرورةِ بحيث لا تُخطئهم العينُ.

تصويرُ عِلْمِ النَّبيِّ ﷺ بهَلاكهم كالمُشاهِدِ

ويَجوزُ أن تُحْمَلَ الرُّؤية على كونِها عِلْميَّةً، أي: تَعْلَمُهُم صَرْعى فيها، كما لو أنَّك تَراهُم بأمِّ عينك؛ إذْ لَمْ يُكتَب للنَّبيِّ ﷺ أن يُشاهِدَهُم عندَ وُقوعِ الهلاكِ، ويكون هذا مِن أساليب القرآن البديعة؛ إذ ينقل الإدراكَ العقليَّ إلى مستوى الإبصار؛ ليُجسِّد الصّورة، ويُقرِّبها إلى الذِّهن، فيصير الخبَرُ عنهم أقربَ إلى الحسِّ والمشاهدة منه إلى الغَيْبِ والسَّماع.

وتَكمُن البلاغة هنا في أنَّ السّياق سياقُ تهويلٍ وإنذار، فناسَبَ أن يُصاغ العِلْمُ بصيغة الرُّؤية؛ لأنَّ المُشاهدَةَ أبلغُ أثرًا في النَّفس، وأشدُّ إيقاظًا للقلب، وكأنَّ اللّه تَعالى يقول لنبيِّه ﷺ: ستَعْرِفُ ما فعلتِ الرّيح بهم كأنَّك واقفٌ على أجسادِهم الممدَّدة تحتها.

تحويلُ العِلْمِ إلى المُشاهدَة؛ لتَقريب هولِ الهَلاك وشدَّة المصيرِ

وبهذا يتحقَّق أثر تربويٌّ وبلاغيٌّ مزدوج، أوَّلهما: تصوير الهلاك تصويرًا حسّيًّا يُقارب الحقيقة، والآخَرُ: بثُّ الرَّهبة في نفوس السّامعين حتّى كأنَّهم يُشاهدون تلك الجُثَثَ المُلقاة في العراءِ[1].

دلالة الخطابِ في قوله: ﴿فَتَرَى﴾:

بلوغُ حالِهم في السّوء والفَظاعَةِ حدًّا ظاهرًا لكلِّ أحدٍ

فاعِلُ الفعلِ (تَرى) مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ضميرٌ مستترٌ وجوبًا تقديرهُ: أنْتَ، وهذا الخطابُ يجوزُ أن يكون لغيرِ مُعَيَّن، فيكون ضميرُ الخطابِ خارجًا عن أصلِهِ مِنْ إرادَةِ المعيَّنِ المشاهَدِ إلى إرادَةِ العُموم، والمقصودُ ليسَ توجيهَ الخطاب إلى شخصٍ بعَيْنِهِ، وإنَّما المعنى: لو أنَّ رائيًا رأى ذلك؛ لرأى منظرًا مَهولًا يفوق الوصف، فيُرادُ بالضَّمير المستتر (أنْتَ) كلُّ من يصحُّ خطابُهُ، فيكونُ عمومًا بدليًّا.

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 578.

وهذا الأسلوب من أدقِّ أساليب العربيَّة في استحضار الأمور العظيمة الغائبة؛ إذ يُخيَّل للسّامع كأنَّه يشهَدُ الواقعَة أمامه، ويُلقى إليه الكلامُ على هيئةِ مَن يُشاهِدُ الحدَث، حتّى تتجاوز الكلماتُ حدودَ الغَيْبِ، وتُلقى في حيّز التَّصوير الواقعيِّ.

وهذا ليس من باب الالتفات؛ لأنَّ الالتفات انتقالٌ مِن الخِطاب إلى الغَيْبَة، أو التَّكلُّم إلى الخطاب، ونحو ذلك، وليس هو كذلكَ هنا، بل هو خطابٌ لكلِّ مَن يتأتّى خطابُهُ، والمقصودُ تحفيزُ التَّخييل وإيقاظ المشاعر، لا إسناد الخطاب لشخصٍ بعينِهِ، والمعنى: أنَّ حالَهُم في السّوءِ والفظاعَةِ بلغَ حدًّا مِنَ الظُّهورِ لو وجَّهَ أيُّ أحدٍ بصرَهُ إليهِم؛ لرأى ذلك.

وهذا من وجوه إعجاز القرآن؛ إذ يتحوَّل الغيبُ إلى مشهَدٍ، ويتحوَّل التَّهديد إلى حضورٍ حيٍّ، فيؤدّي الأسلوبُ غايتَهُ في إيقاعِ الوجَلِ، وتخويف القُلوب، وتنبيه الغافِلين[1].

دلالَةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾:

لفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ في اللُّغة يُطلق على الجماعَةِ والقَبيلَةِ، خُصوصًا في مقام القوَّة والتَّناصر، واستعماله هنا في قول الله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ يُراد به جميعُ قَبيلَتِهِم برِجالِها وكيانها وقوَّتها، لا مجرَّد بعضِ أفرادِها، والمقصودُ به: المكذِّبونَ جميعُهم لا مَن آمَنَ مِنْهُم؛ إذ مِنَ المتقرِّر أنَّه قد آمَنَ من قوم هودٍ جماعَةٌ، كما دلَّ عليه قولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: 58].

القبيلةُ الكاملة تَـنْـدَثِـر حـينَ يَعُمُّها التَّكذيب وتُـعـرِض عن الحقِّ

فالتَّعبير بلفظِ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ لا يترك مجالًا لظنِّ البقاءِ أو النَّجاة لأحدٍ منهم، بل المشهد يُجسِّد سقوطَ كيانٍ بأسره، لا أشخاصٍ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.

متفرِّقين، وكأنَّ الرّيح قد أطاحت بهويَّتهم الجَمْعيَّة وتاريخِهم وبُنْيانهم الإنسانيِّ بالكامل.

وهذا مِن التَّهويل الموجَّه إلى المخاطَبين، أي: أنَّ عذابَ الله تعالى لا يَستَثْني قوَّةً ولا قبيلةً، ولا تَشفَعُ فيه كثرةٌ ولا جاهٌ، فحين ينزلُ العِقابُ الإلهيُّ، يَطْوي صفحةً كاملةً من قومٍ كانوا يومًا عُمَدَ الأرضِ ومهابَها[1].

نُكْتَةُ الإظهارِ في مقام الإضمارِ:

في قول الله سُبحانه: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، فإنَّ مقتضى الظّاهِرِ أن يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (فتراهم فيها صرعى)؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْرُهم في قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، وعُدِلَ عن الإضمار إلى الإظْهارِ؛ تنبيهًا على أنَّ قوَّتهم واجتماعَهم - الذي يدلُّ عليه لفظُ (القوم) - لم يُغْنِ عنهم مِنْ عذابِ الله تَعالى شيئًا.

لا يُغْني شيءٌ مِن عذابِ اللهِ تعالى

دلالة الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾:

الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ من قول الله ﷻ: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ راجعٌ إلى الرّيح أو إلى اللَّيالي والأيّام[2] الواردة قبلُ في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، أمّا على احتمالِ رجوعِ الضَّمير إلى الرّيح؛ فيُفيدُ حرفُ الظَّرفيَّةِ أنَّ الرّيح التي سُلِّطت لتَعذيبِهم صارت بمنزلةِ المستقرِّ لَهُم، أي: أنَّهم غارقونَ فيها، تدور بهم في الجوِّ، وترمي بهم صَرْعى هَلْكى، فتكون الظَّرفيَّة دالَّةً على أنَّهم كانوا محبوسين في هذا العذابِ، وأمّا على عَوْدِ الضَّمير إلى اللَّيالي والأيّام؛ ففيها إشارةٌ إلى استمرارِ العذابِ في هذا الزَّمَنِ كُلِّه، لم يَفْتُر عَنهم لحظةً حتّى أرْداهُم هَلْكى.

انْحِباسُهم في العذابِ ودَوامُه عليهم في جميعِ أيّامه ولَياليهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22.

نكتَةُ تقديم ﴿فِيهَا﴾:

هَلاكُهُم جميعًا في مدَّة التَّعذيبِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾؛ لإفادَةِ الحصْرِ والقصْرِ، والمقصودُ أنَّ هلاكَهُم كان في تلك المُدَّة لم يتجاوَزْها، بحيثُ لمّا سَكَنَت ريحُ العذابِ؛ كانوا كلُّهم صَرْعى موتى، لم يُبْقِ العذابُ مِنْهم باقيَةً لم تَهْلِكْ بعدُ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿صَرْعَىٰ﴾:

هلاكُ عادٍ بأشَدِّ أنواعِ الإهلاكِ

الصَّرْعى في قول الله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ يُراد بهم الهَلْكى، وأصلُ ﴿صَرْعَىٰ﴾ جمعُ صريعٍ، وهو المُلْقى على الأرضِ ميِّتًا[1]، وفي هذا اللَّفْظِ مع ذِكْر أنَّ تعذيبَهم كان بالرّيحِ إيماءٌ إلى أنَّهم قد أُلْقوا على الأرض بقوَّة وعنفٍ وشدَّةٍ.

نُكْتَةُ صَوْغِ لفظِ ﴿صَرْعَىٰ﴾ على زِنَة (فَعْلى):

اجتماعُ المادَّة والصّيغة في (صَرْعَى) للدَّلالةِ على الهلاكِ

﴿صَرْعَىٰ﴾ على زِنَة (فَعْلى)، وهو مِنْ جموع التَّكسير الدّالَّةِ على الكثرةِ، ففي التَّعبير بهِ في قول الله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ دلالةٌ على هلاكِ عددٍ ليس بالقليلِ، بل إنَّ الرّيح سُلِّطت على جميع عادٍ، فأهلكَتْهم إلّا مَنْ آمَنَ بنبيِّ الله تَعالى هودٍ عليه السلام.

ثمَّ إنَّ وزنَ (فَعْلى) يطَّردُ في العربيَّةِ في جمع الأوصافِ الدّالَّةِ على الهلاكِ أو التَّوجُّع أو التَّشتُّتِ، ومِنْه: قتيل وقَتْلى، وجريح وجَرْحى، وأسير وأسْرى، ومريض ومَرْضَى، ونحو ذلك[2]، فاستعمالُ هذه الصّيغَةِ (فَعْلى) في ﴿صَرْعَىٰ﴾ مشعرٌ بالهلاكِ بمادَّتِهِ وصيغتِهِ معًا.

بلاغَةُ التَّشبيه في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾:

الكاف في (كأنَّ) مِنْ قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّشبيهِ، و(أنَّ) للتَّوكيد، وذهب جماعةٌ مِن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 118.
(2) أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، ص: 89.

أهل العربيَّة إلى أنَّ (كأنَّ) برُمَّتها حرفٌ دالٌّ على التَّشبيهِ، والتَّشبيه في الآيةِ تشبيهٌ مرسَلٌ؛ إذ شُبِّه القوم بعد أن صَرَعَتْهُم الرّيح بجذوع النَّخل الملقاة على الأرض؛ لِما في هذه الصّورة من دقَّة في توصيف الهلاك وشناعة المنظَر.

تشبيههم بأعجازِ النَّخل الخاويةِ؛ لاستحضارِ صورةِ الجُثَثِ الطِّوال المُهمَلَة بعدَ انقضاء فائِدَتِها

وأعجازُ النَّخل الخاويةُ: هي أصولُها المقطوعة الخاليَةُ مِنَ الحياة، وقد شُبِّه بها هؤلاء المكذِّبون، إمّا لطول قاماتِهم وضَخامة أجسادِهم، فإنَّ عادًا كانَتْ مشهورَةً بذلك، أو لأنَّ جُثَثَهُم الطِّوالَ بَدَتْ كالأعمدةِ المُلْقاة، بلا حياةٍ ولا حركةٍ، كما تُترك أعجازُ النَّخل بعد قطعها[1].

العتاة إذا سَقَطوا في العذابِ؛ بَدَوْا كجذوعٍ خاويَةٍ لا نَفْعَ فيها ولا حياةَ

وثمَّةَ وجهٌ آخر في التَّشبيه، وهوَ أنَّ أعجاز النَّخل تُقطع لأغراضٍ نافعَةٍ، فتُترك لتَجِفَّ، وتَذهَبَ رطوبتُها؛ استعدادًا للانتفاع بها، بينَما هؤلاء قد قُطِعَت حياتُهم، ثُمَّ تُركوا بلا غايةٍ ولا قيمة ولا نفْعٍ، فكأنَّهم بقايا ساقطَةٌ لَم تَعُد صالحةً لشَيْءٍ، بعدما ظنّوا في أنفُسِهم القوَّة والعظمَة[2]. وهذا التَّشبيه بديعٌ يهزُّ النَّفس بمشهد مهيبٍ، يجمَعُ بين الطّول والفراغ، والهيبةِ والخِذلان، والقيام والسُّقوط، فتكون العِبرةُ أبلَغَ مِن مجرَّد صورةِ جُثَّة، بل صورة مجتمَع ساقِطٍ بعد كِبْرٍ وغُرورٍ.

دلالَةُ أسلوبِ الاستِخْدامِ في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾:

من براعة البيانِ القُرْآنيّ النَّقْلُ الخفيُّ في المَعْنى مِن غير تغييرٍ في اللَّفْظِ

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ذُكِر لفظُ ﴿نَخْلٍ﴾ أوَّلًا باعتبار جُذوعِها ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾، وهذا هو المعنى الأوَّل، والمقصود به: بقايا الجذوعِ المُلْقاة، فقد شُبِّه بها القومُ بعد الهلاكِ، ثُمّ وُصِفَت بأنَّها ﴿خَاوِيَةٍ﴾، ولا يُقصد به أنَّ الجذوعَ نفسَها خاويَةٌ مِن الدّاخل، بل يُراد أنَّ الحديقةَ أو البستانَ التي كانت فيها النَّخل خاويَةٌ، أي

(1) درويش، إعراب القرآن: 10/ 191.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 118.

خاليَةٌ مِن النّاس والحياة، فصار لفظُ ﴿نَخْلٍ﴾ يُراد به معنيان، في أوَّل السّياق: الجذوعُ المُنْطَرِحَة، وفي آخره ﴿خَاوِيَةٍ﴾: الحديقةُ أو المكانُ الذي كانت فيه.

إذًا أُجريَ على لفظٍ واحدٍ - وهو ﴿نَخْلٍ﴾ - معنيان مختلفانِ في جُمْلَتَين متعاقبتَيْن دونَ تغييرِ اللَّفظ، بل تغيير مرجِع الضَّمير المستكِنِّ في الوصْفِ، فلفظ ﴿نَخْلٍ﴾ مُستخدم أوَّلًا بمعناه الأصليِّ الذي يُراد به جذوع النخل في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾، ثُمَّ استُخدم عليه وصف ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ ليدلَّ على معنًى آخر، وهو مكان النخل أو بستانُه، وهذا التَّبديل الدَّقيق للمعنى هو الذي يُسمّى في البلاغة: استخدامًا، والبلاغة فيه: في الجَمْعِ بين معنيين مختلفين لِلَّفظ نفسِهِ في سياق واحد دون تصريحٍ بذلك، بل عن طريق الإشارة والضَّمير والوصف[1].

دلالَةُ الإضافةِ في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾:

تخصيصُ جِنْسِ الأعْجازِ ونَوْعِها

الإضافة في ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ من قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ إضافةُ اختصاصٍ وتمييزٍ، فإنَّ لفظَ ﴿أَعْجَازُ﴾ يَصْدُق على أفرادٍ كثيرينَ مختلفينَ في الحقائقِ، فكانت الإضافةُ تمييزًا لجنسِ الأعجاز ونوعِها، وخُصَّت النَّخْلُ دون غيرِها من الأشجار؛ لصلابتِها وطولها، وعادٌ كانوا كذلك قومًا طوالًا أقوياءَ.

دلالَةُ التَّعبير بالجملةِ الاسميَّةِ في قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾:

لُــزومُ الـهـلاكِ لَهُم، فلا تُرْجى لهم حياةٌ

جاءَ التَّعبير في قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادَةِ معنى الثُّبوت والاستمرارِ، وأنَّ حالَهُم المذكورةَ بعد الهلاكِ، هي وصفٌ لازمٌ لهم، لا يزولُ ولا يتبدَّلُ، فلا تُرجى لهم حياةٌ، ولا يُرْتَقَبُ مِنْهُم نهوضٌ.

(1) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 301، والمراغي، علوم البلاغة، ص: 239، ودرويش، إعراب القرآن: 7/ 498، وحبَنَّكة، البلاغة العربية: 2/ 401.

دلالَةُ الوَصْفِ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ في التَّشبيهِ:

الدِّقَّة في التَّصوير مبالغة في التَّحذير مِن مَصيرِ المُكَذِّبين

الوَصْفُ بـ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ليس مقصودًا في التَّشبيه ذاته، بل المقصودُ منهُ تشويهُ صورةِ المُشبَّهِ به بتشويه مكانهِ، أي: أنَّ جذوع النَّخل التي شُبِّهوا بها هي في مكانٍ قَفْرٍ مهجورٍ، لا ظلَّ فيه ولا حياة، وهذا الأسلوب البلاغيُّ - وهوَ تشويه المشبَّه به - يُرادُ به زيادةُ أثَرِ المُشبَّه، فيتحوَّل التَّشبيه مِن مُجَرَّد تمثيلٍ لطولِ القامَةِ أو امتدادِ الأجْسادِ، إلى تصويرِ مصيرٍ بائسٍ ومهلكة مظلمَةٍ، كأنَّ هذه الأجساد سقطت في مكان خالٍ لا حياة فيه ولا أثر، أشبه بمقبرةٍ منسيَّة، وبهذا يكون التَّشبيه قد تحوَّل من صورةٍ جماليَّة إلى مشهد وعظيٍّ مُرعب، يخدم الغرضَ الأساسَ من السّياق، وهو التَّحذير من مصير المُكَذِّبين، والتَّخويف من أسبابِه[1].

معنى الفاءِ في ﴿فَهَلْ﴾ ودِلالَتُها:

التَّفريع على مَجْموعِ القِصَّتَيْن

الفاءُ في ﴿فَهَلْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ عاطفةٌ[2]، وهي دالَّةٌ على التَّفريع، فهي تُفرِّع على مجموع الخبرَيْنِ عن قومَيْ ثمودَ وعادٍ، وتُبْرِزُ شدَّة التَّلازُم بين المقدِّماتِ ونتائجِها.

دلالةُ الفَذْلَكَة البلاغيَّة في جملة: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾:

تلخيصُ مصير المُكَذِّبين وتعميقُ العِبْرَة بالخاتِمَة القاطِعَة

جاء قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ تفريعًا ختاميًّا على قِصَّتي ثمودَ وعادٍ، فكانت فذلكةً جامعة لما سبقَ تفصيلُه من حالِ الإهلاك، ببيانِ أنَّ النِّهاية الحتميَّة للمُكَذِّبين أنَّكَ لا ترى لهم باقيةً في الأرض ولا في القلوبِ، وهذا الأسلوبُ صيغَ على طريقة الجَمْعِ بعدَ التَّفريق.

فالسّياق ابتدأ بذكر الهلاك مجملًا، ثُمَّ فُرِّق في التَّفصيل بين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 29/ 119.

ثمودَ وعادٍ، ثُمَّ أُعيد الجَمْعُ من جديد بهذه الجملةِ الواحدة الموحيَةِ بالانقراض الكامل، وكأنَّ القرآن الكريمَ يُرينا مشهدًا مفصَّلًا، ثُمَّ يُغلقهُ بكلمةٍ واحدةٍ تختصر المصيرَ كلَّه[1].

دلالَةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾:

إبـــرازُ صـــورةِ الـفَـنـاء بـوجـهٍ أوقـعَ وأبـلـغَ في القلْبِ

جملة ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ استفهامٌ خرجَ عن أصلِهِ مِنْ إرادَةِ طلب العلم بشيءٍ لَمْ يكُنْ معلومًا مِنْ قبلُ إلى مَعْنى النَّفْي[2]، والمقصود: لا ترى لهم باقيةً قطُّ، لكنَّه لم يُصرَّح بالنَّفي، بل جيءَ بصيغة استفهاميَّةٍ تهويليَّة؛ لِما في ذلك من إثارة نفس السّامع، واستحضار صورةِ الفَناء الكلّيِّ، فكأنَّك تُخاطَب بِما يَسْتَدْعي النَّظَر والتَّفتيش، ثُمَّ تُفاجأ بأنَّك لا ترى شيئًا أصلًا، لا ناجيًا ولا أثرًا. وهذا أعظمُ وقعًا في النَّفس من صيغة النَّفي الصَّريح، مثل: (فلم يبقَ منهم أحدٌ)؛ لأنَّ النَّفي هنا ليس مجرَّد خبَرٍ عن الهَلاك، بل هو استدعاءٌ للتَّأمُّل في آثار الفناء والغياب الكُلّي، وكأنَّ السّامع يُدعى للبَحْث، ثُمَّ يُقرُّ بعجزه عن أن يَجِدَ شيئًا، ولذا صيغَ النَّفي على صورةِ الاستفهام: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل الرُّؤية في قوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

بـيـانُ تَـحَـقُّـق هَلاكِهِم

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ رؤيةٌ بصريَّةٌ، والمعنى أنَّهُ لو قُدِّر وجودُ باقٍ مِنْهُم؛ لأُدْرِكَ بالبصَرِ، فلمّا لم يُدْرَك شيءٌ مِنْ ذلك بالبصَرِ؛ عُلِمَ أنَّهم قد أُبيدوا، وأُهْلكوا عن بكرةِ أبيهِم، وهذا يدلُّ على تحقُّقِ فنائهم، وأنَّ إدراكَ ذلك حاصلٌ على وجهِ الضَّرورةِ؛ بحيث لو كان مِنْهُم أحدٌ باقيًا؛ لأبصرتْهُ العينُ.

المـبـالـغَـةُ في بـيـانِ فـنـائِـهِـم وهلاكِهِم

ويَجوزُ أن تكون الرُّؤية عِلْميَّةً، أي: هل تَعْلَمُ أحدًا مِنْهُم باقيًا؟ وهذا أبلغُ وأدلُّ على فنائِهم؛ لأنَّ العَيْنَ قَد تُخطئُ الموجودَ؛ إمّا لبُعْدِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119.
(2) عبد الكريم محمود يوسف، أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، غرضه وإعرابه، ص: 155.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 191.

في المكانِ، أو لوجودِ حائلٍ بينَهُ وبين الرّائي، أو لضعفٍ في الرّائي نفسِهِ، ولكنَّ العِلْمَ أشملُ وأعمُّ؛ لأنَّه يشمَلُ ما أُدْرِكَ بالنَّظر وما بلغَهُ السَّمْع، فيكون أدلَّ على فنائِهم من حمل الرُّؤية على كونِها بصريَّةً.

معنى اللام في: ﴿تَرَىٰ لَهُم﴾:

أثَرُ تعدُّد معاني الحروف في إثراءِ النَّصِّ القرآنيِّ وتكثيف دلالاتِه

اللّامُ في ﴿لَهُم﴾ مِنْ قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ جاءت محمَّلة بدلالات دقيقة متعدِّدة، كلُّها تخدم مقصدًا بلاغيًّا واحدًا، وهوَ التَّأكيد على استئصالِ القوم وإفناء كلِّ ما يُتصوَّر مِن بقائهم أو آثارِهم، فاللّام يجوزُ أن تكون لِشِبْهِ الملك، أي: باقية تعود إليهِم، وتنفَعُهُم، أو تُنسب إليهم، أي: لم تبقَ لهم نفسٌ أو فرقَةٌ أو بقيَّة فيها نفع أو نسبة، وهذا أبلغُ في النَّفْي؛ لأنَّ الباقيَ أحيانًا قَد لا يُنتفع به، أمّا هُنا فنُفيَ عَنْهُم ذلك فضلًا عمّا فيه النَّفْعُ، ويجوز أن تكون اللّام بمعنى (من)، كقولهم: سمعتُ لَه صراخًا، أي: سمعتُ منه، فالمعنى: هل ترى مِنْهُم مِن باقية؟ فيكون التَّركيب أبلغَ في العموم والاستغراقِ، كما يَحتَمِلُ أن تكون اللّام هي اللّام المقدَّرة في الإضافة، والأصل: فهل ترى باقيتَهم؟ فلمّا اقتضى المقامُ التَّنصيص على العموم الكامل؛ أُتي بـ (مِن) الدّاخلة على النَّكرة، فاقْتَضى تركَ الإضافة الظّاهرة، وأظهرت اللّام التي كان الشَّأن فيها أن تُضمَر، كما في قوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ [الإسراء: 5] أي: عبادَنا[1].

وهذه الاستعمالاتُ مِن دقائق نظم القرآنِ الكريم؛ إذْ كلُّ تركيب من هذه المذكوراتِ يَخْدُمُ التَّهويل وتأكيدَ الهلاك، فلا يترك في ذِهْنِ المُتَلَقّي أدنى تردُّد في حقيقةِ الفَناء التّامِّ.

نُكْتَةُ تقديم شِبْهِ الجُمْلَة ﴿لَهُم﴾ في: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾:

تَخْصيصُهُم بالإفناءِ يَقْتَضي تهويلَ عُقوبَتِهِم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُم﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾؛ للعنايَةِ بأمر المكذِّبينَ في ذواتِهم، وأنَّهم هم المقصودونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119.

في بيانِ إهلاكِهم وفنائِهم ابتداءً، كما أنَّ في التَّقديم دلالةً على الحصْرِ والقصْرِ، أي: لا يوجَدُ لهم وحدَهُم باقية، دون سواهُم، وذلكَ يَقْتَضي تهويلَ عقوبتِهم؛ إذ خُصِّصوا بها.

وفي تقديم الجارِّ والمجرورِ أيضًا مراعاةٌ لتناسُبِ فواصِلِ الآي، فإنَّ قبلَها: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

معنى ﴿مِّنْ﴾، ودلالةُ تنكير ﴿بَاقِيَةٍ﴾:

التَّنصيصُ على عُموم إهْلاكِهم وإفْنائِهم

﴿مِّنْ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ صِلَةٌ يُرادُ بها توكيدُ النَّفْي، وإخراجُهُ من كونِهِ ظاهرًا في العموم إلى كونِهِ نصًّا فيه؛ وذلك لأنَّ ﴿بَاقِيَةٍ﴾ نكرةٌ في سياق الاستفهام المرادِ به النَّفي، وهو من ألفاظِ العموم، وهذا العمومُ يجوزُ أن يدخُلَهُ تخصيصٌ، إلّا أنَّه لمّا جيءَ بـ ﴿مِّنْ﴾؛ أفادَت التَّنصيص على العموم، فلا يدخُلُه شيءٌ مِنَ التَّخصيص، وهذا أبلغُ في بيانِ إفنائِهم وإهلاكِهم جميعِهم.

التَّحليل البلاغيّ لكلمة ﴿بَاقِيَةٍ﴾ في النَّظم:

حين يُنفى البقاءُ بكلِّ وجوهه، تتجلّى عاقبة المكذِّبين في أتمِّ معانيها وأشدِّ صوَرِها

جاءت كلمة ﴿بَاقِيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ محتمِلةً لأوجُهٍ بلاغيَّة متعدِّدة، كلُّها تشترك في ترسيخ معنى الفناءِ الشّامل، لكنَّها تتنوَّع في التَّركيب لتعمِّق الصّورة، وتوسِّع الموعظة، وذلك أنَّ ﴿بَاقِيَةٍ﴾ يجوز أن تكون اسمَ فاعِلٍ على حقيقَتِها، أي: نفسٌ باقية، والهاءُ حينئذٍ للتَّأنيث، إمّا باعتبار المحذوفِ المُؤَنَّث، وهو لفظُ (نَفْس) أو (فرقة)، والمعنى: لا ترى فردًا منهم نجا، ولا طائفةً سَلِمَت، كما يجوز أن تكون ﴿بَاقِيَةٍ﴾ مصدرًا على وزن (فاعلة)، كـ(العاقبة) و(الخاتمة)، فيكون المعنى: لا ترى لهم بقاءً أصلًا، لا في الذُّرِّيَّة، ولا في الذِّكْر، ولا في الأثر، أي: انمَحَوا من الأرض بالكلّيَّة، فكأنَّ الزَّمن نفسه طوى صفحتَهم، ولم يُبقِ لهم ظلًّا.

وتعدُّد هذه الأوجه لا يوقِعُ في التردُّد، بل يزيدُ في الإيحاء والبلاغة؛ لأنَّ كلَّ احتمال منها يُضيف بُعدًا جديدًا للهلاك[1].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ بين آيةِ الحاقَّةِ وآيةِ القمَر:

دقَّــة الـبـيـان الــقــرآنيِّ في الــتَّــصــرُّف بالألفاظ تذكيرًا وتأنيثًا بما يُلائِمُ سياقاتِها

قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، فأُنِّثت الصِّفة في آية الحاقَّة، وذُكِّرت في آية القمر.

ومِنَ المعلوم المتقرِّر عند علماء العربيَّة أن لفظ (النَّخل) اسم جنسٍ، يُذكَّر ويُؤنَّث، فيُذكَّر مراعاةً للَّفظ، ويُؤنَّث مراعاةً للمعنى.

وفي اختيار اللَّفظِ المؤنَّث ﴿خَاوِيَةٍ﴾ في سورة الحاقَّة، واللَّفظ المذكَّر في سورة القمر نِكاتٌ:

أوَّلًا: أنَّ في ذلك مراعاةً لتناسب فواصل آي السّورتين، فإنَّ قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ يُلائمُ الآياتِ قبلها، كقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20] يناسب الآياتِ قبلَها وبعدَها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر: 19]، وقوله سُبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١﴾ [القمر: 21].

ثانيًا: أنَّ اللَّفظ المؤنَّث دالٌّ على الكثرة، والمذكَّر دالٌّ على القلَّة، وذلك في الموضعين المَذْكورَيْن، وقد تقرَّر أنَّ العرب قد تُؤَنِّث لإرادة الكثرة، وتُذَكِّر لقصد القلَّة، كما في قول الله تعالى: ﴿*وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: 30]، وقال سُبحانَهُ: ﴿*قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: 14]، فالنِّسوة قلَّةٌ، ولذا ذُكِّر الفعلُ مَعها، والأعراب كثرةٌ، ولذا أُنِّث الفعل مَعهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 600، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 239، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 255، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 22، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 119.

وهذا ما نجده في آيَتَي الحاقَّة والقمر، فإنَّ النَّخل في آية الحاقَّة أكثرُ منهُ في آية القمر، كما يدلُّ على ذلك السّياق، فإنَّ الله تعالى قال في الحاقَّة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، وقال ﷻ في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 18 - 20]، ويتَّضح من خلال سياق الآياتِ أمورٌ:

أحدُها: أنَّه قال في القمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: 19]، وقال في الحاقَّة: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فزاد في وصف الرّيح المذكورة في الحاقَّة، فقال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾، فكان وصفُها أشدَّ ممّا وُصفت به في القَمَر، وإذا كان كذلك فما يَتْبَعُها من التَّدمير يكون أكبرَ وأبلَغَ، ويكون اقتلاعُها أشدَّ وأكثر.

ثانيها: أنَّه قال في القمر: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر: 19]، وقال في الحاقَّة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، فذُكِرَ في سورة القمر أنَّ الرّيح أُرسِلَت عليهم في يوم، وذُكر في الحاقَّة أنَّها سُخِّرت عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيّام، فزيد في بيان وقتِ العذاب والتَّدمير، ولا رَيْبَ أنَّ امْتِداد الزَّمن يقتضي تدميرًا أكثرَ وأشدَّ، فالرّيح تقتَلِعُ وتُدَمِّر في سبع ليالٍ وثمانيةِ أيّامٍ أكثرَ ممّا تَفْعَلُهُ في يوم، فكان فيه دلالةٌ على كثرةِ النَّخل المقتلَع في سورة الحاقَّة.

ثالثها: أنَّ الرّيح لَمّا زادت عُتوًّا وزمنًا في سورة الحاقَّة؛ ذُكر أنَّ الرّيح استَأصَلَتْهُم جميعَهم، فلم تَذَرْ منهُم أحدًا، فقال سُبحانه: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾، ولم يأتِ ذلك في سورة القمر.

رابعها: أنَّ النَّخلَ المُنْقَعِر هو المُنْخَلِع عن مَغارِسِهِ السّاقطُ على الأرض، وأمّا ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ فمعناها: خَرِبَة، أو التي خلَت أعجازها بِلًى وفسادًا، وذهب بعضُ أهل العربيَّة إلى أنَّ الخاويَة معناها معنى المُنْقَلِع، وإنَّما قيل للمُنقلعة: خاويَةٌ؛ لأنَّها خوَت مِن مَنْبِتِها الذي كانت تَنْبُت فيه، وخَوى مَنبِتُها منها، فالنَّخل الخاوية تشمَلُ النَّخل المنقعِرَ وزيادةً، فكلُّ نخلٍ منقعرٍ هو خاوٍ، وليس كلُّ خاوٍ منقعرًا.

فأُنِّث الوصفُ في الحاقَّة، فقال سبحانه: ﴿خَاوِيَةٍ﴾؛ لأنَّه أكثرُ مِنَ المُنْقَعِر، ودَمارُهُ أشدُّ وأبلغ.

وبهذا يتبيَّنُ أنَّ الخاويَ أكثَرُ مِنَ المنقعِر، وأنَّ تأنيث الخاوي - وهو خاوية - للدَّلالة على الكثرة والمبالغة؛ لأنَّ التَّأنيث قد يَرِدُ مرادًا به الكثرةُ والمبالغةُ، وممّا يتَّضح أيضًا أنَّه قد وُضِعَ النَّخل الكثير المُدَمَّر مع الرّيح المتَّصفة بزيادة التَّدمير، وهو وصفُ العُتوِّ، وذلك في قوله: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، وقد وُضِعَ هذا التَّدمير الأقوى مع زيادةِ وقْتِ التَّدمير، وهو سبعُ ليالٍ وثمانيةُ أيّامٍ، بخلاف ما دُمِّر في يوم. ومِن المعاني أيضًا: أنَّه قد وُضع مع استئصالِ القوم، فلَمْ يَنْجُ أحدٌ منهم.

فكان لفظ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أنسبَ شيءٍ وأبلغَهُ في سياقِهِ، ولفظُ ﴿مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20] أحسنَ شيءٍ وأرفعَهُ في مقامِهِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّيح والرّياح:

الرّيحُ للعذابِ، والرّياحُ للرَّحمة في غالِبِ الاستعمالِ القُرآنيِّ

(الرّياحُ): جَمْعٌ، و(الرّيحُ): مُفْرَدٌ، وكِلاهُما وارِدٌ في القُرْآنِ الكَريم، والغالِبُ في الاستِعْمالِ القُرْآنيِّ: استِعْمالُ (الرّياح) لِلرَّحْمَةِ والامْتِنانِ، و(الرّيح) لِلعَذابِ، ووَجَّهَهُ ابْنُ عَطيَّةَ بِأنَّ "ريحَ العَذابِ شَديدَةٌ مُلْتَئِمَةُ الأجْزاءِ، كَأنَّها جِسْمٌ واحِدٌ، وريح الرَّحْمَةِ لَيِّنَةٌ مُتَقَطِّعَةٌ، فَلِذلِكَ هيَ رياحٌ، وهوَ مَعْنَى (بُشْرًا)، وأُفْرِدَتْ مَعَ الفُلْكِ؛ لأنَّ ريحَ إجْراءِ السُّفُنِ إنَّما هيَ واحِدَةٌ مُتَّصِلَةٌ، ثُمَّ وُصِفَتْ بِالطِّيبِ، فزالَ الاشتراكُ بَيْنَها وبَيْنَ ريحِ العَذابِ"[2].

وَذَكَرَ عَبْدُ الفَتّاحِ لاشين أنَّ هَذا مُقْتَضى استِقْراءِ أساليبِ القُرْآنِ

(1) فاضل السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص: 97 - 100.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 233.

الكَريم، وأنَّ هَذا شَيْءٌ مُطَّرِدٌ في القُرْآنِ إلّا في مَوْضِعِ سورَةِ يونُسَ[1]، وثمَّةَ مواضعُ اختلفَ فيها القُرّاءُ جمعًا وإفرادًا.

وأقْدَمُ مَنْ يَرْجِعُ إليه هَذا التَّفريقُ هوَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ﷺ، فقَدْ قالَ: "كُلُّ شَيْءٍ في القُرآنِ مِنَ الرّياحِ فهيَ رَحْمَةٌ، وكُلُّ شَيْءٍ في القُرْآنِ مِنَ الرّيحِ فهوَ عَذابٌ"[2].

وَأمّا حَديثُ "اللهمَّ اجْعَلْها رياحًا، ولا تَجْعَلْها ريحًا"؛ فلا يَصِحُّ[3]، ولَوْ صَحَّ لَكانَ أصْلًا في التَّفْريقِ.

الصِّرّ والصَّرصر:

الـصِّـرُّ الــبَرْدُ، والصَّرْصَرُ البردُ المضاعَفُ

أصلُ اللفظتين واحد، وهو من قولهم: صرَّ البابُ يصرُّ؛ إذا امتدَّ، فإذا كان فيه ترجيعٌ في إعادةٍ ضوعِفَ الفعلُ، والصِّرُّ - بالكسْرِ - هو البَرْدُ الذي يُصيبُ كلَّ شيءٍ، ومنه قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: 117]، وأمّا الصَّرُّ - بالفتح - فهو شدَّة الصّياح، والصَّرَّةُ كذلك.

و(الصِّرُّ) مؤلَّفٌ مِنْ مقطع واحدٍ، وفيه تضعيفُ الرّاءِ، وهذا اللَّفْظُ يُعبَّرُ به عن العذاب والعقاب المناسب للأقوام الظّالمي أنفُسِهم، كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: 117]، وأمّا (الصَّرْصَرُ)؛ فهو مؤلَّفٌ من مقطعين اثنين، فكأنَّه صِرٌّ يتعبهُ صِرٌّ آخرُ، ويُعبَّر به عن العذاب والعقاب المضاعَفَيْن؛ ليُناسِبَ ذنبَ من ضاعفوا ظُلْمَهم وطغيانَهُم، كما قال الله تعالى عن قوم عادٍ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ

(1) عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 141.
(2) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره: 1/ 275، (برقم: 1475).
(3) الطحاوي، شرح مشكل الآثار: 2/ 379.

هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ [فصلت: 15 - 16]، وقال عنهم: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[1].

(1) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 675 - 676.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"